جزيرة مالطة وآثارها القديمة

بقلم الاديب فؤاد افرام البستاني

سبقت مجلة المشرق (٨[١٩٠٥]: ٥١٥) فذكرت نبذةً عن جزيرة مالطة وجُزُرها الثلث لاقاليتًا وغوزو وكومينا ونشرتْ هناك خارطتها مع بعض صورها واشارت الى من تقلّب فيها من الامم الغابرة

وقد وقفنا على فصل نشرهُ العالم الفرنسويّ فوربان في المجلّة الفرنسويّة « العلوم والرحلات » ضمّنهُ وصفاً حسناً لهذه الجزيرة ولآثارها ومتحفها الذي يديرهُ احد مشاهير علمائها الاستاذ زَمّيت (Zammit) . فأحببنا ان ندوّنهُ هنا معرّباً ببعض التصرُّف

كانت مالطة في اول عهدها قسماً من ارض ضيقة تصل اوروبة بافريقية . وكان فيها كثير من الانهار العذبة التي بجريانها السريع وحَملها الكثير من التربة الاصليّة نحو مصبّها جمعت على الشواطئ طبقةً كثيفة ينقّب فيها الباحثون فيستدلّون بما يجدونهُ من الآثار على تقلّبات احوال البلد . غير ان هيئة مالطة لم تثبت على هذه الصورة فحصل زلزال قوي نزل بها الى قعر البحر كما تدلّ الطبقة الرملية الموجودة فوق التربة الاصليّة السابق ذكرها . ثم لم تلبث ان عادت مياه البحر الى مقرّها فظهرت الارض متصلةً بالقارتين الاوربيّة والافريقية وفي زمن اتصالها بهما هاجرت اليها حيوانات اوربة وافريقية فاختلطت وتناسلت وتكاثرت . ويُرى تحت ترابها اليوم كثير من بقايا الفيلة العظيمة الجرم والدببة والذئاب وانواع الكركدّن وغيرها من مواليد افريقية . ولم يطُل الوقت حتى ظهر الانسان فملأ كهوف الجزيرة باثاره الظرّانيّة

وكان ان هاج البحر المتوسط فقطع السواعد الارضية بين القارتين وفصّل صقلية عن تونس ثم انتزع من الاولى جزيرتي مالطة وغوزو . ومن ذاك الحين اخذت مالطة اسم جزيرة وبدأ عهدُها السابقُ التاريخ

*

من يلاحظ صخور الجزيرة الظاهرة للعيان يرَ تُلَماً مختلفة العمق تظهر دائماً على

شكل خطين مستقيمين متوازيين . وليس اكتشاف هذه الاخاديد بجديد بل لحظها علماء القرن الثامن عشر لكنهم لم يدركوا المراد منها لانها كثيرة التشعب تسير في كل الوجهات فلا تقف عند حاجز حتى انها كثيراً ما وصلت الى البحر وقطعت الشاطئ ممتدة تحت الماء على الشكل السابق . وبقي سر هذه الخطوط غامضاً حتى دقق الاثريون في درس طبقات الارض واكتشفوا أبنية عظيمة الاحجار عادية الآثار فتبينوا في السنوات الاخيرة ان هذه الثلم آثار دواليب مركبات الاقدمين الضخمة التي لتكرار مرورها في الموضع نفسه حفرت فيه تلك الخطوط المتوازية . وهذا ما نراه ايضاً في كثير من طرق الصين القديمة المبنية منذ الوف السنين

ويهتم الاثريون اليوم بوضع خارطة لهذه الخطوط المتشعبة وهم يؤمنون بواسطتها اكتشاف المدن السابقة التاريخ التي كانت تنتقل اليها تلك المركبات الضخمة

اما وصول الخطوط الى تحت الماء وظهورها في الشاطئ الآخر وانقطاعها على حافة كل شفير فما يُبرهن انها وُجدت قبل ان طغت المياه على اليابسة ، وبكلمة اخرى ان الجزيرة كانت مأهولة قبل ان فُصلت عن صقلية اي قبل ان صارت جزيرة مستقلة . وهذا يؤيد ما سبقنا الى بيانه ويُظهر ان عمر تلك المدنية يبلغ على وجه التقريب الثمانين قرناً

ومما يؤكد صحة هذا القول ان كثيراً من الخطوط مختفٍ تحت طبقة سميكة من الارض الرملية التي تكوّنت عليها بعد طغيان مياه البحر

يجدر بنا الآن ان نتكلم عن الحفر والآبار العجيبة التي اكتُشفت قبل بضع سنين قرب الخليج المسمّى مرسا سيروكو في جنوبي شرقي الجزيرة . فهذه الآبار تبلغ المئين وهي محفورة حفراً عجيباً في الصخور على شكل قناني مقلوبة ويتراوح عمقها بين خمسة وعشرة امتار . ولا يزال العلماء يتساءلون عن حافريها فمنهم من يقول انهم نفس اصحاب المركبات الضخمة ومنهم من يظن انهم اقدم عهداً . وعلى كلٍّ فان وجود بعض الآبار تحت الماء والرمل يبرهن انها حُفرت قبل انقلاب الجزيرة النهائي

ولعشر سنوات خلت كان اعتقاد اكثر الاثريين ان الفينيقيين حفروا تلك الآبار على الشواطئ البحرية إما كصهاريج لجمع مياه المطر وإما كمطامير لحفظ بعض مؤونتهم كالزيت والحبوب التي كانوا يصدرونها الى البلدان القريبة . وقد دفعهم الى

هذا الاعتقاد وجود آبار تشبهها في بعض شواطئ الجزائر وتونس. غير ان اكتشاف آبار مثلها في قمم الجبال اضعف هذا الاعتقاد ولم يلبث ان زال تماماً باكتشاف الكثير من آثار الهياكل والمدن السابقة لعهد التاريخ مما دلَّ على ان تلك المدنيَّة سبقت زمن الفينيقيين بقرون عديدة

وقد بلغ عدد الهياكل المكتشفة خمسة : واحدٌ منها وهو المدعو «جيغانتيا» في جزيرة غوزو واربعة في انحاء مالطة وهي : «حجر كيم» و «منيدار» و «كورّادينو» و «هال تاركين» وهذا الاخير اكتشفهُ العلّامة زمّيت بمعاونة تلاميذهِ المالطيين في سنة ١٩١٦ وسيأتي الكلام عنه بالتفصيل

فابسط هذه الآثار واقدمها يشابه آثار سكان غالية القدماء التي تُرى في بريطانية (فرنسة) وهي مؤلفة من انصاب عظيمة عمودية (Menhirs) او افقية على شكل المذابح (Dolmens) ولا اثر فيها للشغل. ثمّ يليها آثار غيرها يظهر فيها قليل من الشغل وهو يشبه الاحجار العاديَّة (Monolithes) الموجودة في سهل سالسبوري (انكلترا). امّا الهياكل فانها مؤلفة من عدة محاريب بيضويَّة الشكل تختلف ظاهرًا وباطنًا مما يدل على انها ليست صنع مهندس واحد بل مبنية الواحدة قرب الاخرى في عصور مختلفة دون وحدةٍ تربطها

واهمُّ الهياكل المذكورة «حجر كيم» وهذه اللفظة عربية حُرّفت واصلها «الحجر القائم» — ولا يخفى ان في اللغة المالطية كثيرًا من الاصول العربية بل هي اللغة العربيَّة عينها مصحَّفة وممتزجة بالفاظ اجنبيَّة (اطلب المشرق ٨[١٩٠٥]: ٨١٣—٨١٥) — وهو قائم على هضبة في جنوبي الجزيرة تبعد عن شاطئ البحر نحو ١٥٠٠ متر. والهيكل مركب من احجار رُكب بعض على بعض بدون بلاط وسُقفت ببلاط مستطيل جُعلت فوقه قبة مجوَّفة الرأس على شكل قبر او سرير. وقد كانت هذه القبة ولا تزال موضوع اختلاف الاثريين فان البعض منهم يعتقدون ان الاقدمين كانوا يلقون فيها اجساد موتاهم لتأكلها طيور السماء شأن بعض الهنود اليوم. ويقول الآخرون انهم كانوا يضحّون اولادهم ويهرقون دماءهم فتسيل في جوف هذه القبة

وعلى كيلومتر واحد من «حجر كيم» يرتفع هيكل «منيدار» وهو احدث عهدًا بدليل صقل حجارته وآثار النقش الباقية على مذابحه وابوابه

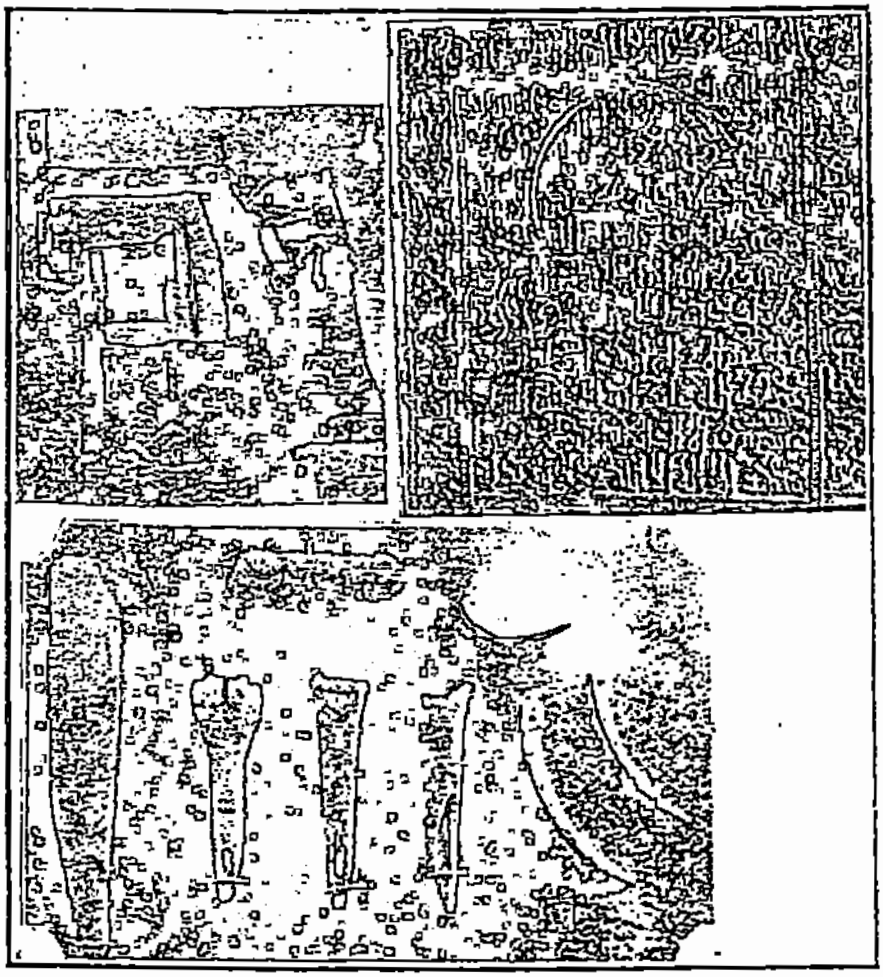

١) نرى في الاثر الأعلى على اليمين صورة الكتابة العربيّة التي وُجدت على ضريح السلاميّ يرتقي عهدها الى السنة ٥٦٩-١١٧٣ م ٢) والاثر الثاني هو المِعْبر الذي ينفذ الى المَقدس الداخلي
٣) آثار عَضُديّة وُجدت في حفريّات مالطة منها ابرتان للخياطة على اليمين

وفي سنة ١٩١٦ بينما كان الاستاذ زمّيت يفتش على هيكل « هال تاركسين » استخرج من الطبقة العليا عدّة اواني خزفية رومانية وفينيقيـة ، ولما نُزعت تلك الطبقة وجدوا تماثيل صغيرة وعقودًا وجرارًا من الفخار غير متقنة الصنعة فيها عظام بشريّة متكلّسة وحلى من البرونز والعظام وبعض حبوب قمح . وتحت هـذه الآثار وجدت طبقة سميكة من الرمال خالية من كل اثر فلمّا سبرها ظهرت بلاطـات هيكل « هال تاركسين » المذكور

وعلى اثر هذه الاكتشافات اضطرّ الاستاذ الى تـأجيل العمل لضيق ذات يده فبقيت تلك الآثار مهملةً ست سنوات حتى عـاد اليها في الخريف الماضي فاتمّ عملهُ وظهر طول الهيكل ٤٠ مترًا وعلوُّ ما يحيط به من الرمال والتراب مترانِ ونصف . وهو مجموعة غرف مختلفة الكبر والارتفاع يتصل بعضها ببعض بواسطة ممشىً عريض ينتهي الى غرفة داخليـة تدعى المقدس لا يدخلها الّا كبير الكهنة . وفي كل من هذه الغرف مذبح من الحجر المصقول نُقشت عليهِ صور بعض حيوانات كانوا يقدّمونها كذبائح اخصُّها الثور والغزال والتيس ممّا يدل على معرفة ذاك الشعب لهذه الحيوانات الداجنة . ووجد في احدى الغرف قطعة من تمثال كبير قدّر الاثريون انهُ تمثال إلهة الحياة او الهة الخيرات كما دلّت بعض رموز نقشت على قاعدته

وقد ظهر قرب هذا الهيكل هيكل آخر يُدعى « هال — سافليني » ومعناه « المدينة السفلى » وهو مركب من غرف واسعة محفورة في الصخور . وقربه خرائب مدينة تختلف هندسةً وبناءً عن كل ما سبق فان آثارها ليست بيضوية الشكل كآثار باقي الهياكل وانما هي مستطيلة ما حمل البعض على الاعتقاد بانهـا من آثار مدنيّةٍ غير المدنيّات المعروفة اليوم

واكتشف مؤخرًا قاعدة مزهريّة كبيرة كتب عليهـا اوّلًا اربعة اسطر باللغة الفينيقيّة في مدح « مليكارت » ملك صور . وتحتها ثلاثة اسطر باللغة اليونانيّة حُفرت بعد الكتابة الفينيقية بعدة قرون ذكر فيها اليونان انهم هركول

وممّا اكتشف ايضًا كتابة عربيّة وجدت على ضريح وهي بالخط الكوفي وترتقي الى سنة ٥٦٩ (١١٧٣م) مسيحيّة وذاك زمن ازدهار المدنيّة العربيّة في تلك الجزيرة

*

فلو امعنّا النظر في اكتشافات الاستاذ زمّيت امكننا ان نؤلّف حلقات تاريخ هذه الجزيرة المتفرقة ، فنرى اوّلًا ان شعباً راقياً ، ربما كان متسلسلًا من حافري الآبار ، بنى هيكل «هال — تاركسين» ونقش حجاره بآلاته الفلنّية التي يرتقي استعمالها الى قبل المسيح بنحو بضعة آلاف سنة اي الى عصر الظرّان المصقول . ثم اختفى هذا الشعب فهُجر الهيكل زمناً طويلًا تيسّر فيه للرياح ان تجمع فوقهُ طبقة رمال سميكة وخلوُّ هذه الطبقة من الآثار يبيّن خلوّ الجزيرة من الناس طول تلك المدة

وكان بعد زمن طويل ان هبط الفينيقيون مالطة فتأثروا بمنظر ما تبقى من ذلك الهيكل الضخم فجعلوه مكاناً مقدساً يحجّون اليه ويدفنون فيه موتاهم . ويؤيد هذا القول ما وُجد من التماثيل والعظام البشرية المصنوعة في عصر البرونز

اما اصل الشعب الاوّل ومن اين جاء ؟ وكيف انتفى ؟ وكيف خلت مالطة من السكان — وهي على طريق الامم — من اواخر عصر الحجر المصقول اي عصر البرونز؟ فكل ذلك مما خفي عنا تماماً

ويرى الاثريون ان سيكون لمالطة في عالم الاثريات والماديات شأن عظيم لا يقلّ عن غيرها من الدول القديمة والله اعلم

مطبوعات شرقية جديدة

DIE SYRISCHE JACOBOSANAPHORA nach d. Rezension d. Ja'qôb(h) von Edessa mit d. griech. Paralleltext, herausg. von A. Rucker. *Münster in Westf.*, 1923

ليتورجيّة القديس يعقوب الرسول

سبقت مجلّتنا (المشرق ٨ [١٩٠٦] : ٦٧٧) فنشرت فصلًا مطوّلًا في ليتورجيّة القديس يعقوب وصحّة نسبتها اليه وانتشارها في الكنيسة وما اصابها من التغيّرات في مدى الاجيال وفي اللغات العديدة التي نُقلت اليها . وهذا تأليف جديد لاحد